# أهمية الترجمة في نشر العلم و المعرفة

**أ. نصيرة شافع بلعيد**
جامعة تلمسان

قد يبدو غريبا أن نتحدث عن أهمية الترجمة في نشر العلم و رفع مستوى التعليم و نحن على مشارف القرن الحادي و العشرين ،غير أنّ هذه الغرابة لا تلبث أن تنقشع حينما نتذكر أننا نتحدث عن هذه الأمة التي تنتمي إلى اللسان العربي و تحترّ أمجادا صنعتها أمة غبرت لا يكاد يصل بينها و بينها إلاّ وشيجة نسب يوشك أن لا يكتشفها المرء إلاّ بشقّ الأنفس .

وأعني بالأمة التي غبرت ،تلك الأمّة الوسط التي تربعت على عرش العلم و الحضارة سبعة قرون وسطى مزدهرات ، حفظت للبشرية فيهن حكمة الأوّلين و الآخرين ، ومكّنت العالم الآخر الذي أصبح يقال له العالم الأوّل من الخروج من ظلمات قرونه الوسطى و يتبوّأ مكانة الوارث لهذه العلوم ، بل مكانة السيّد الفرد الذي يريد أن يحتجز العلم لنفسه و يلقي إلى العالم الثالث الذي هو نحن بفتات موائده ، و يسمح – إن سمح – له بنقل محصول العلم و التكنولوجيا ،ضنينا عليه بنقله كما يجب .

أما هذه الأمّة التي نحن منها ، فهي خلق جديد بدأ يتولّد مع انهيار العباسيين بالمشرق و الموحدين بالمغرب في أواخر القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي .

و لقد واصل هذا الخلق تولّده و امّساخه سبعة قرون عجافا ، حتى بلغ طور الإنسان العربي في مطلع هذا القرن ، و هو إنسان قابع ، قانع بما يتناثر عليه من فتات الآخرين .

إنسان لم يهزم أمام الآخرين بقدر ما هزم أمام نفسه ، فحين أفاق من صدمته ، بعد سبات عميق، وجد نفسه في مواجهة حضارة جبّارة و ظنّ أنّه لا طاقة له بها ، فأصبح قصارى ما يطمح إليه أن يعيش طفيليا على هذا المخلوق الجبّار الذي أصابه بالانبهار .

هكذا أصبح الإنسان العربي المسلم فيروسا حضاريا ينخر في جسم الحضارة و لا يستطيع أن ينهض بنفسه، فأصبح قصارى أمله أن ينقل التكنولوجيا، أما أن يحوز العلم نفسه الذي أبدع هذه التكنولوجيا، فهذا أمر لا يخطر له على بال.

لقد أصبح قصارى منشوده أن يجيد لغة عملاق الحضارة حتى يستطيع أن ينقل من فتات هذه الحضارة أقصى ما تسمح له به طاقته .

و قد سبق لأمتنا الغابرة أن خاضت تجربة رائدة في الترجمة ، لعلها أروع و أغنى تجربة في تاريخ الفكر الإنساني كلّه ، و هي تجربة دامت ثلاثة قرون كاملة ، فحركة الترجمة مدينة بوجه خاص لرجال العصر

العبّاسي الأوّل ، حيث جعلوا بغداد مركزا لحركة من أكبر حركات الترجمة في التاريخ . وكان المترجمون أنفسهم رواداً في ميدان البحث العلمي. ف"يوحنا بن ماسَوَيْه" كان طبيباً، ونبغ حتى كان أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد في كتب الطب القَدْيمة، في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم، وجعله أميناً عَلَى الترجمة ،ثمّ أعقبتها في اتجاه معاكس تجربة أخرى نقلت علوم العرب إلى اللاتين على مدى قرنين من الزمان[1] .

فقد بدأت أمّتنا تلك تنفتح على العالم من حولها ، و هي في مرحلة نضج ثقافي و علمي ظاهرين ، أمّا الثقافة ، فقد أنضجها الإسلام الذي يأمر عن طريق القرآن بالقراءة ويقسم بالقلم و الكتابة ، ويدعو في كثير من آياته إِلَى التفكير والتنقيب والبحث في الكون والكائنات، ويفاضل بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وبين الذين أوتو العلم والذين لم يؤتوه... ومؤدّي هَذا الكتاب رسولٌ يفضّل مجلس العلم عَلَى مجلس الذكر، ويقسّم الناس إِلَى عالم ومتعلّم وهَمَج لا خير فيه، ويوازن بين مداد العلماء ودماء الشهداء، ويجعل الحكمة ضالّة المؤمن أنى وجدها فَهُوَ أولى بها.

و أما العلم فقد كان علوما مبتكرة تنظم ضوابط اللغة التي هي قوام الثقافة... وتلك علوم اللغة والنحو والعروض؛ وكان منه علوم تحدد التعامل عَلَى مستوى الفرد والأسرة والمجتمع... مثل علم الفقه؛ وكان منه علوم تضبط فهم مصادر الفكر والتشريع والسلوك وتكفل سلامة النصوص الناظمة لجميع شؤون الحياة... وتلك علوم التفسير والحديث... وكلّها علوم عربية إسلامية بحتة، أبدعتها عقول أبناء هذه الأمة عَلَى غير مثال سبق [2]. و الترجمة هي الوسيلة الأولى لدفع القصور عن اللغة و سدّ النقص في الأدب و كشف الظلام عن الأمّة، إذ يقول " أحمد حسن الزيّات ":

"سيبقى العلم غريبا عنّا ما لم ننقله إلى ملكنا بالتعريب و نعمّمه في شعبنا بالنشر ، و لا يمكن أن يصلنا به أو يدنينا منه كثرة المدارس و لا وفرة الطلاّب ، فإنّ من المحال أن ننقل الأمّة كلّها إلى العلم عن طريق المدرسة ، و لكن من الممكن أن ننقل العلم كلّه إلى الأمّة عن طريق الترجمة ."

لذلك يرى " الزيّات " أنّه يجب أن تنشأ في عالمنا العربي دار للترجمة مستقلّة ، يكون لها من جلال القدر و نباهة الذكر ما للجامعة ، ثمّ يختار لها المترجمون النابغون في لغتهم و في اللغات الأوروبية، ينقلون العلوم و الآداب الأجنبية نقلا كاملا صحيحا ، فلا يدعون علما من أعلام الأدب والعلم و الفنّ إلاّ نقلوا كتبه و نشروها ، فإذا فرغت دار الترجمة من ترجمة الموجود ، تفرغت لترجمة المستجدّ [3].

و الجدير بالذكر أنّ موقف " الزيّات " لا يختلف عن موقف " هارون الرشيد " أو " المأمون " أو علماء هذه الأمّة في جميع العصور ، لكن الترجمة في القرن العاشر غير الترجمة في القرن التاسع عشر و غيرهما على مشارف الألف الثالثة .

فلا شكّ أنّ كمّ المعلومات المتفجرة و قنوات الاتصال المتشابكة و لغة الجرائد و الإعلام و تقنيات الحاسوب و الأقمار الصناعية ،كلّها أمور لها انعكاساتها و مردودها على الترجمة : كمّا و كيفا ، إيجابا و سلبا ، حاضرا و مستقبلا .

و لابد من الإشارة إلى أنّ تمثل المعلومة العلمية تمثلا صحيحا يتطلّب تلقينها باللغة الأمّ و إلاّ كان التمثّل منقوصا بمقدار بعد المتلقي عن اللغة التي هي وعاء المعلومة ، و لما كان تمثّل العلم ضروريا للاستفادة منه، فإنّ اللّغة الأمّ هي التي ينبغي أن تكون وعاء المعلومة ، إذ يقول الله تعالى : " و ما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم[4] " ، فاللسان القومي هو لسان التبيين .

كما قال جلّ شأنه : " خلق الإنسان علّمه البيانّ "[5]، تنبيها أنّ خلقه إيّاه هو تخصيصه بالبيان .

و في العصر الحديث ، بفضل اللغة اليابانية التي تُعلّم بها جميع المعاهد و الكليات باليابان ، و تُحرِّر بها جميع الأبحاث ، استطاع اليابانيون أن يتمثّلوا علم عصرهم و تكنولوجية عصرهم و أن يصبحوا في مقدّمة دول العالم علما و قوّة .

كما أنّ المقصود من الترجمة أن ننقل المعلومة نقلا أمينا مفهوما ، و إلاّ كان ضررها أكبر من نفعها ، إذ نرى كثيرا ممن يترجم في عصرنا هذا يكون أمينا في نقله و لكنّه يترجم ترجمة حرفية تجعل المعنى مبهما ، فقد قال " الجاحظ" منذ العصر العبّاسي : " إنّ الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم ، لذلك لابد أن يكون المترجم أعلم النّاس باللغة المنقولة و المنقول إليها "[6] .

للموضوع بعد تربوي ، فلو أنّ سائلا سألك : ما القراءة ؟ لكان جوابك : إنّها الفهم

و الاستيعاب ، فليست القراءة مجرد عملية بصرية و لكنّها كما يقول " كارول " : " عملية تتطلّب معلومات مرئية و معلومات لامرئية ، أمّا المرئية فتأتي من الصفحة المطبوعة ، و أمّا المعلومات اللامرئية فتأتي من الدماغ ."

و لا ننسى أنّ قضية المصطلح بالغة الخطر ،كبيرة الشأن ، فإذا كان من غير الجائز أن يترك وضع المصطلحات الجديدة لرجال الإعلام ، فإنّ من غير الجائز للعلميين المختصين كذلك أن يبطئوا بطء السلحفاة في صوغ المقابل العربي للمصطلح المستجدّ ، و على رجال العلم و اللغة أن يبتكروا الوسيلة التي تضمن ذلك[7] .

كما أنّ الترجمة يجب أن تكون عملية مستمرّة ، متواصلة و أن تظفر بدعم السلطة ،كما ظفرت ترجمة أسلافنا بدعم الخلفاء أمثال : "عمر بن عبد العزيز " ،" المنصور" ،" الرشيد" و" المأمون" و غيرهم ،

و كما حظيت الترجمة من العربية إلى اللاتينية – في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر– بدعم ملوك صقلية و أسبانيا و غيرهم من حكام الفرنجة .

## الإحالات :

1 – أ. إبراهيم بيومي مدكور و آخرين ، أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، القاهرة ، 1987 .

2 – د. محمد جابر الأنصاري ، التعريب الجامعي و حتمية المقاربة الميدانية ، رسالة الخليج العربي ، القاهرة ، 1988 .

3– عثمان سعدي ، التعريب الشامل ممكن و في كلّ المجالات ، جريدة الشرق الأوسط ، العدد 6105 ، 1995 .

4– إبراهيم : 4

5– الرحمان : 3 ، 4

6 – الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق و شرح الأستاذ عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، ج1 ، ط3 ، القاهرة ، 1969 .

7– د. منى قيّاض ، في أسباب قصور البحث العلمي في العالم العربي ، جريدة الحياة ، العدد 11907 ، 1995 .